ولكن...

قصة قصيرة

عزيز الحاج

- «هالو بابا»
- «نجوى!؟ أهلا حبيبتي.. كيف الصحة؟»
- «أنا بخير، وأنت؟»
- «بخير، شكرا، ولكنني متعب قليلا. من أين تتكلمين؟»
- «من بغداد. وصلناها أمس، وآسفة لتعذر توقفي عندكم في لندن».
- «سنلتقي قريبا ان شاء الله. وكيف زوجك؟»
- «يسلم عليك، وكذلك ماما. انها بجانبي؟»
- «انقلي لها تحياتي الحارة.» كانا - هو وأمها - قد ظلا صديقين برغم سنوات الطلاق وتبدل الأحوال.
- «بابا، عندي خبر مفرح.. انا حامل»
- «صحيح؟!» توقف لحظة وأضاف «مبروك».
- «شكراً بابا.. وحاملة بتوأم»
- «ماذا!؟؟» سمع الكلمات جيدا وفهم، ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم.
- «أقول، ها توأم.. هكذا قال لنا الطبيب النمساوي».

كان الخبر قد باغت شكيب القادري مباغتة كادت تصعقه. ولكنه لم يجد غير تكرار التهاني وانتهت المكالمة.

توأم!؟ توأم!؟ ألا يكفي ظفل واحد؟ كان قد فرح لزواج نجوى وقد بلغت الثالثة والعشرين، ولكنه نصحها مرارا بأن لا تنجب الا بعد مضي سنوات، فتستقر حياتها الزوجية وتزداد خبرة عملية.. هكذا كان يقول، وهكذا كانت نصائحه في الظاهر. أما في واقع الحال فانه يرتعب لمجرد فكرة أن يصبح ذات يوم جدا. كلمة (جد) بحد ذاتها تشعره بالشيخوخة حتى اذا كان في مرحلة ما قبل الأربعين... فكيف وهو سيصل الخمسين بعد اسابيع وقد اشتعل رأسه شيبا؟

لقد أصبح أقل قدرة على السهر، أي نوع من السهر، وأضعف مناعة إزاء الامراض، وأخذ شعوره بتقدم السن يطغى لديه على كل شعور آخر وصار يلازمه كالوسواس. منظرة لا يزال خادعا اذ يبدو وكأنه في بداية الاربعين.. وان لديه اكثر من صديقة حميمة شابة.. وسهرتان ممتعتان معتدلتان في كل اسبوع.. ومع ذلك فانه لم يعد كأيام زمان في فيينا أو بغداد. وأكثر ما يقلقه بل ويرعبه هو بياض الشعر، وزحف هذا البياض.

منذ اسبوعين كان يسهر مع سهام... وقال لها فجأة بمنتهى الجدوالترقب:

- «سهام.. ما رأيك في أن نتزوج؟؟

توقفت عن الاكل وتطلعت اليه بعينيها الواسعتين وقالت:

- «هل تمزح؟»
- «كلا.. لم اكن معك جديا كما أنا الآن. لقد تعبت وأخذ الشعور بالوحدة يجتاحني من حين الى آخر، وصرت أميلَ الى الاستقرار. فما رأيك؟»
- «ولكنك تعلم ان ذلك محال»
- «محال!؟ ولم!؟ ألسنا صديقين منذ ثلاثة أعوام، بل ونحن نصف متزوجين!؟»
- «ولكن الزواج شيء آخر.. يختلف تماما.. وماذا سيقول الناس؟ أنسيت فارق السن؟ تكاد تكون في عمر المرحوم أبي».
- «ولكن هذا لم يمنع صداقتنا وعلاقتنا العاطفية المتينة وسهراتنا.. الم تقولي مرارا وتكرري بأنك تؤثرينني على اكثر الشبان الذين يحومون حولك ويلحون في مغازلتك؟»
- «بلى.. ولكن الزواج تجربة أخرى وعلاقة من طراز

مختلف. كيف لا يستطيع مثلك ان يدرك ذلك!؟ »

سكتت لحظة، ثم اضافت مبتسمة:

- « هل تريدني أن أفتش لك عن زوجة تليق بك؟ »
- « وهل يخطر أحد على بالك؟ »
- « أجل خالتي »
- خالتك!؟ »
- ولم لا؟ ألم تعبر لي عندما رأيتها منذ عام عن اعجابك بروائها ونضارتها وأناقتها وكأنها في اوائل الثلاثين. إنها حلوة، جذابة، ومدبرة، وهادئة أعصاب. فماذا تريد اكثر!؟

تأملها بشيء من الدهشة، وأراد مكايدتها، فقال مبتسما بخبث:

- « موافق ولكن بشرط أن تستمر علاقاتنا نحن الاثنين! ».

فقالت بعتاب:

- « استغفر الله.. أية أفكار شريرة وخيالات شيطانية! لو لم أعلم أنك تمزح لغضبت وزعلت ».

ضحكا برفق.. وارتفعت الكأسان....

- ٢ -

وجد الباب منفتحا قليلا فدفعه برفق وحذر شديدين.. وأخذ يزحف على السجادة رويدا رويدا كاتما أنفاسه.. حتى وصل قرب السرير الواسع حيث يرقد والده. رأى جاكيتة الوالد معلقة كالمعتاد. مد يده الى الجيب الأيمن بكل احتراس فاصطدمت ببعض القطع الفضية.. فأخرجها بخفة وبراعة وقد تصبب منه العرق... كبح أنفاسه.. واستدار وعاد زاحفا باحتراس مضاعف. حتى بلغ الباب. لم يبق غير أن يتخطى العتبة ليعود سالما الى غرفته المجاورة وقد فاز بصيد الليلة. فاذا بالنقود تسقط من يديه وتحدث دويا مرعدا كالانفجار، واشتعل البيت كله أضواء.

وصاح الحاجب:

« محكمة!! »

- « ما اسمك؟ »
- « شكيب ».
- « وما اسم ابيك »
- « عبد الرزاق القادري ».
- « العمر؟ »
- « تسع سنوات ».
- « والمهنة؟ »
- « تلميذ ابتدائية ».
- « تقدم واحلف بهذا القرآن بان لا تتكلم بغير الصدق ».

تقدم وأقسم وعاد الى مكانه.

ولأول مرة يحدق في رئيس المحكمة فاذا به معلمهم العملاق المستبد الذي يرتعب منه التلاميذ.. عقابه شديد.. لا تخالجه رأفة أو رحمة ولا يعرف الابتسامة أبدا.

- « لماذا تحترف السرقة؟ »
- « أية سرقة؟ »
- « نقود أبيك... الزحف والتسلل الليليان؟ »
- « أنه أبي والنقود نقوده ».
- « ولكنها سرقة، وهذه مهنة حرامي. ألا تستحي من نفسك!؟ سنرى... هذه تهمتك الاولى. أما التهمة الثانية فانتظر قليلا ».

وهنا صاح الحاكم على الحاجب:

- « أدخلوا المدعي »

فدخل كبش ضخم مهيب المنظر ذو قرنين هائلين يتهادى في مشيته كالمهراجا. عرفه شكيب في الحال ودهش. انه كبشهم (سمسم) الذي نحره خاله في العيد منذ شهرين.. ولا يزال يذكر ذلك الصباح الاحتفالي وقد تحلقت العائلة والضيوف حول أسياخ اللحم الموضوعة على مجمرة كبيرة في فناء الدار. اسياخ ترفع وتلتهم لتوضع في مكانها أسياخ جديدة، ومعها المخلل واللبن وانواع السلطات.. من أين جاء؟ وكيف بعث حيا؟ أم ماذا؟

- « تكلم يا ولدي سمسم. ما هي شكواك؟ »
- « لقد عذبني المتهم، وأرهقني، واضطهدني، بل وأهانني. كان يطاردني ويأبى الا امتطائي وكأنني حمار، بل وكان يربط حول رأسي ما يشبه اللجام ويدورني في فناء الدار وفي الحارة أمام السابلة ».
- « هل لديك شهود؟ »
- « بلى.. وأولهم خاله... وهو حاضر في هذه القاعة ».

وتوجه الحاكم الى شكيب:

- « ما جوابك يا شكيب؟ »
- « عفوا سيدي.. لم أعد أفهم .. هل أنا أحلم أم أنها اليقظة... هذا الكبش قد ذبح والتهمناه. وان خالي نفسه هو الذي نحره. ثم كيف تصدقون ان جسما ضعيفا صغيرا مثلي يمكن ان يرهق ظهر مخلوق فحل مثله كالحديد؟ أولا ترونه كالثور!؟ »
- « لا تغالط! هل كنت تمتطيه كالحمار أو لا؟ أجب بنعم

أو لا »

- « ولكنه مات، يا سيدي.. وقد أكلناه. وهل خلقت الأكباش لغير ذلك!؟ »

وتطلع الى القاعة حيث الناس، فاذا بينهم أبوه وهو يبتسم ابتسامة تنم عن شماتة.. والى جانبه خاله مقطبا ولا يكاد يتطلع اليه.

وهنا اخذ يرتجف تهيبا وخوفا وحيرة وانبهارا، وارتعشت عيناه، وتداخلت عنده الاصوات والاضواء والظلال والأشباح... ثم ساد الصمت المطبق والظلام....

- ٣ -

رن جرس الهاتف الموضوع قرب السرير.

- « نعم؟ »
- « صباح الخير.. أنا سهام. كيف صحتك اليوم. »
- « شكراً، أحسن قليلا، ولكنني لا أزال مرهقا... الحمى خفت قليلا ولكن الحلقوم ملتهب والصداع مستمر واعضاء جسدي كلها منهارة.. تصوري ان هذه هي يقظتي الثالثة منذ الفجر. استيقظت في السادسة لاشرب الماء... ثم نمت..واستيقظت في التاسعة لأتناول الدواء ونمت حالا. وها هي الواحدة بعد الظهر. »
- « انها الانفلونزا الحادة. انك في حاجة الى أيام أخرى من الراحة.. وما أخبارك الاخرى؟ »
- « اشاهد التلفزيون أو أقرأ ولكنني أتعب بسرعة.. وماذا بعد؟ آه.. كلمتني ابنتي وقالت انها حامل، وباكثر من طفل واحد »
- « مبروك »
- « أتسخرين؟ »
- « وكيف أسخر؟ الست سعيدا؟ »
- « ولكنك أول من سيعيرني غدا، وستسمينني بجدك »
- « يظهر انك لم تنس بعد حديث السهرة الأخيرة. انك معقد حقا. »
- « ولكنك أنت التي ألححت على فارق العمر بيننا. »
- « كنا نتحدث عن الزواج.. كنا نمزح. أو لسنا صديقين برغم كل شيء؟ ما بال هاجس العمريشغلك؟..ألم تسمع أو تقرأ ان الخمسين هي بداية الرجولة الناضجة وأن السبعين هي بداية الشيخوخة المتألقة؟ لاتخضع لتأثيرات المرض. »
- « وكيف خالتك » سأل على غير انتظار.
- « تسأل عنك! » (وضحكت ثم أضافت):
- « على فكرة، سأمر عليك في حوالى الساعة الرابعة لأطبخ لك شوربتك المفضلة للعشاء. ألا تحتاج الى شيء؟ »

فقال:

- « أشتهي اليوم بعض المشويات.. أرى شهيتي مفتوحة. إجلبي الأسياخ، وشيئا من الخبز اللبناني، والنعناع... وعلبتي اسبرين. »!

باريس

في أواخر مارس ١٩٨٣

دار الآداب

سلسلة

بطولات عربية

- لبيك ايتها المرأة بقلم سليمان العيسى
- الحدث الحمراء بقلم سليمان العيسى
- ابن الصحراء بقلم سليمان العيسى
- صلاح الدين الايوبي بقلم فالح فلوح
- زنوبيا فارسة الصحراء بقلم فالح فلوح
- سيف الدولة الحمداني بقلم فالح فلوح
- معركة الزلاقة بقلم فالح فلوح

ثمن الجزء ٥ ل. ل.

دار الآداب شارع البزركمجي، بناية مركز الكتاب، ص.ب ٤١٢٣ تلفون ٨٠٣٧٧٨ ٣٠٢٩٨٦